التسلسل العام للدروس (٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

قال المؤلف – رحمه الله –: « بَابُ اَلشَّفَاعَةِ ».

أراد المصنف – رحمه الله – في هذا الباب بيان الشفاعة وحال الذين يطلبون الشفاعة من غير الله ﷻ وأن الشفاعة منها ما هو شرك، ومنها ما هو توحيد، فأراد المصنف – رحمه الله – بيان هذه المسألة العظيمة التي وقع للقبوريين اختلاف كثير عن أهل السنة والجماعة فيها، لذلك أكثر ما يقع عند القبور إنما هو من باب الشفاعة أن يطلب من الميت أن يشفع له عند الله ﷻ.

وأيضًا هذا الباب مناسب للأبواب السابقة، ففيه بيان حال الناس من دون الله ﷻ، فطلب الخير إنما يكون من عند الله ﷻ، فلا أحد ينفع إلا بإذن الله ﷻ كما سبق في الأبواب السابقة.

قوله: « **بَابُ اَلشَّفَاعَةِ** »: أي حكم الشفاعة، وبيان حال الذين يشفعون أو يطلب منهم، وأن الشفاعة منها ما هو شرك، ومنها ما هو توحيد.

والشفاعة: أصلها الشفع، وهو مأخوذ من المقارنة بين الشيئين، وضد الشفع الوتر، والشفاعة هي: طلب الخير للغير.

والشفاعة على نوعين:

النوع الأول: شفاعة دنيوية: وهي التي يتكلم عليها الفقهاء **وهي على نوعين:**

١. نوع جائز أو مشروع: وهي كل ما كان فيه إحقاق حق أو إبطال باطل، فمن شفع لشخص ليحق الحق أو يبطل الباطل أو الظلم الواقع على هذا الشخص فإنا نقول: أن هذه الشفاعة مشروعة.

٢. وضد ذلك الشفاعة المحرمة: وهي التي كانت ضد ذلك، وهي كل ما كان فيه إحقاق للباطل أو إبطال للحق؛ كمن يشفع في حد من حدود الله، وهذه المسائل يتكلم عليها الفقراء.

النوع الثاني: الشفاعة العقدية، أو يقال: الشفاعة الأخروية، وهذه الشفاعة أيضًا على قسمين أو على نوعين:

القسم الأول: شفاعة مثبتة، وهي التي تطلب من الله، وقد أذن الله للشافع أن يشفع، ولها شروط:

الشرط الأول: الإذن من الله للشافع أن يشفع.

الشرط الثاني: الرضا عن المشفوع، كأن يكون من المؤمنين أو من المسلمين، ولا يرضى إلا لأهل التوحيد.

ويدل على هذين الشرطين قوله تعالى: **{وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}**[النجم: ٢٦]. فذكر الإذن والرضا، الإذن من الله للشافع أن يشفع، والرضا عن المشفوع.

زاد بعض العلماء شروطًا: منها القدرة على الشفاعة، كما في قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}**[فاطر: ١٣].

زاد بعضهم: إسلام المشفوع له؛ كما في قوله تعالى: **{فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}**[المدثر: ٤٨].

ولكن نقول: أن الشرط الأول والثاني يغني عن ذكر الثالث والرابع.

القسم الثاني: الشفاعة المنفية: وهي كل شفاعة اختل فيها شرط من شروط الشفاعة المثبتة، كمن يشفع للكافر، والشفاعة للكافر نقول: أنها شفاعة منفية لم تقبل، فلذلك الشفاعة المنفية نقول: كل شفاعة اختل فيها شرط من شروط الشفاعة المثبتة يقال: أنها منفية، أو يقال: هي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

والشفاعة المثبتة الأخروية ذكر أهل العلم أنها أقسام:

فمنهم من أوصلها إلى ستة أقسام، ومنهم من أوصلها إلى سبعة، ومنهم من أوصلها إلى ثمانية، وأكثر وأقل من ذلك، وهي على نوعين:

النوع الأول: خاص بالنبي ﷺ أي المثبتة، خاصة بالنبي ﷺ كالشفاعة لأهل الموقف، والشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة، والشفاعة لعمه أبي طالب.

النوع الثاني: الشفاعة العامة للنبي ﷺ ولسائر الأمة من المؤمنين أن يشفعوا بعد الإذن والرضا، وهي أنواع:

١. كمن دخل النار أن يخرج منها.
٢. ومن استحق دخول النار ألا يدخل النار.
٣. وكذلك الشفاعة للرفعة في درجات أهل الجنة، وغير ذلك من الأنواع وهي مذكورة، وسيأتي - إن شاء الله - الكلام عليها في كتاب "**العقيدة الطحاوية**" لأن منها ما ثبت الدليل فيها، ومنها ما ذكره العلماء ولكن لا يوجد على ذلك دليل صحيح.

📖**قال المؤلف - رحمه الله -: وَقَوْلِ اللَّهِ ﷻ: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ }** [الأنعام: ٥١].

الشاهد قوله: {وَلَا شَفِيعٌ }: أي لا يشفع أحد إلا بعد الإذن والرضا.

وَقَوْلِهِ: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا} [الزمر: ٤٤]

ويوم القيامة تنتفي الشفاعات، ولا يبقى إلا الشفاعة لأهل التوحيد، لذلك قال تعالى: **{قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}** [الزمر: ٤٤]، فالشفاعة الحق لا تكون إلا لله، والله ﷻ يعطيها المؤمنين إكرامًا لهم وبيانًا لفضلهم على غيرهم.

ولكن قد يقول قائل: لماذا الشفاعة مقيدة بهذه القيود الثقال الإذن من الله والرضا، ولا يرضى سبحانه وتعالى إلا لأهل التوحيد؟

الجواب: نقول: حتى لا يتعلق متعلق بالشفاعة ويصرف قلبه عن الله، قيدت هذه الشفاعة بهذه القيود ليعلم الإنسان أن الخير إنما هو من الله، وطلب الخير لا يكون إلا من الله وبإذن من الله سبحانه وتعالى، لذلك قيدت هذه الشفاعة بهذه الشروط الثقال.

وحقيقة الشفاعة: أن الله عز وجل هو الذي يتفضل على أهل التوحيد فيأذن لهم أن يشفعوا، وذلك لبيان وإظهار كرم الله على هؤلاء المؤمنين كالشهداء، والأولياء، فيأذن لهم ليبين فضلهم على غيرهم.

📖**قال المؤلف – رحمه الله –: وَقَوْلِهِ: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}** [البقرة: ٢٥٥]

هذا فيه إثبات الإذن من الله، وأن الله عز وجل لا يشفع إلا بعد أن يأذن، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد.

📖**قال المؤلف – رحمه الله –: وَقَوْلِهِ: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}** [النجم: ٢٦].

ويدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: **{وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}** [النجم: ٢٦].

فذكر هنا شرطين: الإذن من الله، أن يأذن لمن أراد أن يشفع.

والرضا: أي الرضا عن المشفوع، ولا يرضى سبحانه إلا عن أهل التوحيد، أي أن يكون من الموحدين.

📖**قال المؤلف – رحمه الله –: وَقَوْلِهِ: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}** [سبأ: ٢٢].

لما ذكر المصنف – رحمه الله – الآيات التي تبين وجوب صرف الشفاعة لله عز وجل وأن الشفاعة لا تكون إلا من الله، بإذن منه، ورضا عن المشفوع ذكر ما ينافي ذلك وهو حال المشركين أنهم يأتون إلى الأصنام أو المعبودات أو الأوثان فيطلبون منهم الشفاعة، فذكر الله عز وجل هذه الشفاعة المنفية، وذكر حال الذين يُدعون من دون الله وتطلب منهم الشفاعة بقوله: **{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}**، فهذا فيه بيان حال المدعوين، سواء كان هؤلاء المدعوين من دون الله عز وجل من الأصنام أو الأوثان، أو سواء كانوا من الأولياء والصالحين ولكن انتفى قيد آخر وهو الرضا عن المشفوع.

فالله عزل وجل لا يأذن للأصنام أن تشفع، ولا يرضى أيضًا عن الكافرين أن يشفع لهم، فلو أن كافرًا ذهب إلى صنم من الأصنام فطلب منه أن يشفع فإنا نقول: أنه في حقه انتفى شرط الرضا والإذن، أما لو ذهب شخص ممن لم تقبل لهم الشفاعة كالكافر أو القبوري أو الذي يصرف الدعاء والنذر لغير الله إلى ميت من الأموات فطلب منه أن يشفع؛ أيضًا نقول: بأنه لا يشفع.

لو أن إنسانًا ذهب إلى رجل حي أو نقول مثلًا في يوم القيامة رجل لا يصلي، أو أنه من غير هذه الملة مات على اليهودية أو النصرانية فذهب إلى ولي من الأولياء فطلب منه أن يشفع؛ نقول: لا تقبل، لماذا؟

الجواب: لأنه انتفى في حقه الرضا عن المشفوع.

لذلك قال تعالى: **{فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}** من هؤلاء؟ **{قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}** [المدثر: ٤٣ - ٤٨].

فهؤلاء انتفى في حقهم الرضا، لذلك النبي ﷺ حينما استأذن من الله عز وجل أن يزور قبر أمه أذن له، ولكنه طلب أن يستغفر وهو شفاعة له، هل أذن أو لم يأذن؟

الجواب: لم يأذن، لأن من مات على الكفر لا تقبل الشفاعة في حقه، لذلك قال تعالى: **{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ}** [التوبة: ٨٠]، الجواب أنهم لن يغفر لهم، **{سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}**[المنافقون: ٦]، لماذا؟

الجواب: لأنهم فقدوا شرط الرضا.

الإنسان قد يشفع، يظن أن هذا الرجل من المؤمنين فيطلب من الله أن يغفر له، هذه شفاعة، ولكن نقول: أن الله عز وجل لا يرضى عن المنافقين.

لذلك لما ذكر الله عز وجل عن المنافقين قال: **{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ}**[التوبة: ٨٠]، الجواب: أن الله عز وجل لن يغفر لهم، والله عز وجل لن يرضى عن الكافرين.

فلذلك لا بد من توفر الشرطين:

الشرط الأول: الإذن من الله للشافع.

الشرط الثاني: الرضا عن المشفوع.

📖**قال المؤلف – رحمه الله –: قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: «نَفَى اللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}».**

ما هو الذي يتعلق به المشركون؟

الجواب: يتعلقون بالوسائط كالأوثان والقبور، والأشجار، أو الأحجار أو غير ذلك.

📖قال المؤلف – رحمه الله –: **فَهَذِهِ اَلشَّفَاعَةُ اَلَّتِي يَظُنُّهَا اَلْمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا اَلْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ – لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا –ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اِرْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ».**

📖قال المؤلف – رحمه الله –: **وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: (مَنْ أَسْعَدُ اَلنَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟)، قَالَ النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»، فَتِلْكَ اَلشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ اَلْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اَللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاَللَّهِ.**

أي من أحق الناس بهذه الشفاعة، ومن الذي يستطيع أن يدخل في هذه الشفاعة، ومن أحق وأفضل من يدخل في هذه الشفاعة؟

الجواب: **قَالَ النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»، فَتِلْكَ اَلشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ اَلْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اَللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاَللَّهِ.**

📖قال المؤلف – رحمه الله –: **وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اَللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ اَلَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ اَلْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ اَلْمَقَامَ اَلْمَحْمُودَ.**

قد يقول قائل: ما فائدة الشفاعة؟

الجواب: نقول: فائدة الشفاعة أن يبين الباري سبحانه وتعالى فضل هؤلاء المؤمنين أنه جعل لهم الشفاعة، والله عز وجل قادر على أن يغفر لهم، وأن يدخلهم الجنة، ولكن ليبين فضل المؤمنين، جعل الشفاعة في حق من هو أهل للشفاعة.

قوله: « مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ»: أي ليبين فضله على غيره، ولله المثل الأعلى لو أن شخصًا مسئولًا أذن لرجل دونه في السلطة أن يسمح لعشرة من الناس أن يدخلوا مثلًا إلى جامعة، أعطاه هبة، ما فائدة ذلك؟

الجواب: فائدة ذلك أنه يبين فضله، هو يستطيع أن يدخل هؤلاء العشرة ولكن ليبين مكانته وكرمه لهذا الرجل وفضله على غيره سمح له أن يدخل من يشاء من هؤلاء العشرة، **{وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى }** [النحل: ٦٠]، فالله عز وجل جعل الشفاعة للمؤمنين ليكرمهم، ويبين فضلهم على غيرهم.

لذلك جعل للشهيد سبعين يشفع فيهم، ليبين فضل الشهادة في سبيل الله عز وجل.

📖قال المؤلف – رحمه الله –: **بَابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}** [القصص: ٥٦].

أراد المصنف – رحمه الله – بهذا الباب الرد على القبوريين، الذين يعتقدون في الأولياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون من دون الله عز وجل، فبين المصنف – رحمه الله – حال النبي ﷺ وهو أتقى الناس، ومع ذلك لم يستطع نفع أقرب الناس له وهو عمه، وهذا دليل على أن الخير إنما هو بيد الله سبحانه وتعالى، ولذلك يجب على الإنسان أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق.

فإذا نظرت إلى هذه الآية **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}** النبي ﷺ في الحياة وهو رسول، لم يستطع نفع أقرب الناس إليه، فمن باب أولى إذا مات.

ومن باب أولى أيضًا غير النبي ﷺ لا يستطيع، ولذلك الواجب على الإنسان أن يتعلق بالله عز وجل.

قوله: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} ما المراد هنا بـ**{مَنْ أَحْبَبْتَ}**؟

الجواب: المراد بهو عمه أبو طالب، ولكن المحبة هنا هل هي محبة هداية أو أنها محبة فطرية؟ محبة القريب إلى قريبه؟

نقول: **اختلف العلماء على قولين:**

القول الأول: منهم من قال: أن المحبة هنا **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}** أي محبة الهداية، أي أنك تحب أن يهتدي، تحب أن يستقيم، تحب أن يكون من المؤمنين.

القول الثاني: منهم من قال: بأن المراد بالمحبة هنا المحبة القلبية أو المحبة الفطرية التي لا يمكن للإنسان أن يدفعها، لأن الإنسان بطبيعة حاله أنه يحب أقاربه من الأم، أو الأب، أو الزوجة، أو الابن، فهذه المحبة لا يمكن للإنسان دفعها.

ولا يعني ذلك أنه إذا أحب الإنسان بقلبه هؤلاء أنه يفضل محبتهم على غيرهم من الأولياء أو الصالحين أو المؤمنين — لا — ولكنه يجد قربًا وأنسًا عند هؤلاء، فمحبته إنما هي محبة فطرية.

قوله: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي }أي النبي ﷺ لا يستطيع الهداية ولكن ما المراد بالهداية؟

الجواب: الهداية المراد بها: نفع الإنسان في الدين والدنيا، **وهي ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: هداية عامة لكل أحد، والله عز وجل هدى الناس لمعاشهم ومأكلهم، ومشربهم، بل حتى هدى الحيوان إلى ذلك، فهذه هداية عامة يعرفها كل الناس، يشترك فيها المؤمن والكافر.

النوع الثاني: هداية بمعنى الإلهام والتوفيق، وهذه خاصة بالله عز وجل، وهي المراد بقوله: **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}**[القصص: ٥٦].

النوع الثالث: هداية البيان والإيضاح، فهذه للنبي ﷺ، ولغيره من الدعاة؛ كما في قوله تعالى: {**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**} [الشورى: ٥٢]، **وهي على نوعين:**

١. هداية تأسيس: أي نقل الإنسان من الكفر إلى الإسلام.

٢. هداية إصلاح، وهذه تكون للمسلم المعرض عن بعض الواجبات، أو الواقع في بعض المحرمات، فالهداية هداية إصلاح له أن تصلحه، أن يكون من المؤمنين أو من المحسنين.

📖**قال المؤلف — رحمه الله —: «وَفِي الصَّحِيحِ: عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَا لَهُ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا، فَكَانَ آخَرَ مَا قَالَ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ**

اَلْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ فَقَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ " لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ ". فَأَنْزَلَ اَللَّهُ ﷻ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى}، وَأَنْزَلَ اَللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}».

قوله: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ اَلْوَفَاةُ»: الوفاة: بمعنى الموت، أي لما قرب أجله جاءه النبي ﷺ وهذا فيه مشروعية زيارة الكافر في مرضه، ولكن هل هذا مطلقًا؟

الجواب: نقول: إن كان للدعوة فإن هذا مشروع، فالنبي ﷺ زار عمه هنا لأجل ماذا؟

الجواب: لأجل أن يدعوه إلى الإسلام، وينقذه من النار لكنه أبى، فكانت العاقبة السيئة له.

والنبي ﷺ لما علم بابن جاره اليهودي أنه مريض، زاره، فعرض عليه الإسلام فأسلم، فلما مات قال النبي ﷺ: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**»؛ فهذا فيه مشروعية زيارة الكافر من باب الدعوة.

قوله: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ اَلْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اَللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ»: وهذا فيه حسن أخلاق النبي ﷺ أنه يناديه مع أنه كان من الكافرين، ولكن كان يناديه بماذا؟

الجواب: كان يناديه بـــ "يا عم". ولم يناده باسمه، لأن هذه أخلاق النبي ﷺ أنه يعطي كل ذي فضل فضله، ويعرف للناس حقوقهم.

فقال: «**يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اَللَّهِ**»: قد يشكل ويرد إشكال وهو أنه قال: « **لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ اَلْوَفَاةُ** »: مع أنه معروف أن الإنسان إذا حضرته الوفاة تقبل له التوبة أو لا تقبل له؟

الجواب: لا تقبل له التوبة، إذا غرغرت نفسه كما ورد في الحديث، فما هو الجمع بين هذا الحديث وبين غيره من الأحاديث التي تثبت أن من أدركه الموت لا تقبل له التوبة؟

الجواب: نقول:

أولًا: أن يقال: هذا الحديث لما حضرت أبا طالب الوفاة أي لما ظهرت العلامات ولم تغرغر روحه، وإنما ظهرت العلامات، وإنما الوارد من أدركه الموت. أي بمعنى جاءه غرغرة الموت فإنه لا تقبله التوبة.

ثانيًا: أن يقال: أن هذا خاص بهذا الرجل، أي أن الأصل أن الإنسان إذا أدركه الموت فإنه لا تقبله الشفاعة، ولكن يستثنى من ذلك هذا الرجل، لذلك النبي ﷺ ماذا قال؟

الجواب: قال: «**يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اَللَّهِ**»: أي بمعنى أشفع لك عند الله. وأطلب من الله أن يغفر لك ما سبق بسبب قولك هذه الكلمة، وهذا دليل على ماذا؟

الجواب: دليل على أن هذا خاص بهذا الرجل، ولكن نقول: أنه دليل على التخصيص، ولذلك الأصل أن الإنسان إذا حضرته الوفاة أي بمعنى أدركه الموت فإنه لا تقبل له الشفاعة إلا بدليل خاص ولا دليل على هذه الحال.

ولذلك نقول: « **لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ اَلْوَفَاةُ** »: أي علامات الموت.

والذي تنفى عنه التوبة و لم تقبل له هو من أدركته الغرغرة، فيفرق بين من حضرته الوفاة ومن أدركه الموت، وحضرته الوفاة أي علامات الموت.

قوله: «**وَعِنْدَهُ عَبْدُ اَللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ**»: هذا فيه مشروعية أن الإنسان يقول: قل. ولكن بعض العلماء فرق بينهما فقال: المسلم والمقر بهذه الكلمة لا يقول: قل، وإنما يقول: لا إله إلا الله. فيفرق بين المسلم وبين الكافر، لماذا؟

الجواب: لأن المسلم مقر بهذه الكلمة، فحينما تأمره وهو في هذه الحال الحرجة قد يخرج كلمة بالرفض فيرد هذه الكلمة، فأنت تُعرِّض له أن يقول: لا إله إلا الله. بخلاف الكافر، فالكافر إذا رد هذه الكلمة هو أصلًا مات على الكفر حتى لو رد هذه الكلمة، لذلك يفرق في العرض بين المؤمن وبين الكافر.

قوله: « **يَا عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ**»: هنا لم يقل: وأن محمدًا رسول الله. وإنما اقتصر على "**لا إله إلا الله**"، نقول: سبق الكلام على هذه المسألة وأن العلماء اختلفوا فيها هل يجزئ للإنسان أن يقول: لا إله إلا الله أو لا يجزئ؟

القول الأول: من العلماء من قال: أن الإنسان إذا قال: لا إله إلا الله دخل الإسلام، ثم بعد ذلك يطالب ببقية الشرائع، ويدل على ذلك هذا الحديث أن النبي ﷺ قال له: « **قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ** »، وأيضًا في الحديث الآخر: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولون: لا إله إلا الله**»، وقول النبي ﷺ: «**من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة**»، فكل هذه أدلة على أن الإنسان يدخل الإسلام بمجرد أن يقول: لا إله إلا الله.

القول الثاني: أن لا إله إلا الله علم على هذه الشهادة، فالإنسان إذا قال: لا إله إلا الله فإنه يجب أن يتمم الشهادة بقوله: وأشهد أن محمدًا رسول الله، وإنما يقال: لا إله إلا الله على سبيل الاختصار، وإلا من قال: لا إله إلا الله وامتنع عن الشهادة للنبي ﷺ فإنها لا تقبل منه.

لذلك ورد في الحديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولون: لا إله إلا الله**» وفي رواية: «**وأني رسول الله**»، فلا بد من الإقرار والاعتراف بهذه الجملة.

وهذا هو الأظهر والأقرب أن الإنسان لا بد أن يعترف ويقر بالشهادة للنبي ﷺ.

هل يترتب على هذا الخلاف ثمرة أو لا يترتب على ذلك ثمرة؟

الجواب: يترتب على ذلك الخلاف ثمرة، فمثلًا شخص قال: لا إله إلا الله، ثم بعد ذلك مات، على القول الأول قالوا: بأنه مات على الإسلام، وعلى القول الثاني قالوا: بأنه لم يدخل الإسلام.

ولكن هنا في هذا الحديث فنقول: أن النبي ﷺ طالبه بأن يقول: لا إله إلا الله. فإذا أقر بـ"**لا إله إلا الله**" يطالبه بأن محمدًا رسول الله، أو يقال: بأنه كان يعتقد أن النبي ﷺ رسول الله؛ ولكن منعه الكبر والحسد بقوله:

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينًا

فكان يعتقد أن النبي ﷺ رسول، وأن دينه خير الأديان، ولكن منعه في الكبر، واعتقاد الجاهلية.

قوله: « **كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اَللَّهِ** »: أي أشفع لك بها عند الله.

قوله: «**فَقَالَا لَهُ**»: من هما؟

الجواب: هما عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، وهذا فيه:

أولًا: بيان أن صاحب السوء يجر الإنسان إلى المهالك والمخاطر.

ثانيًا: بيان أن صاحب السوء يدعو الناس إلى الكفر بالله عز وجل.

ثالثًا: بيان أن صاحب السوء لا يؤمَن على إضلال غيره، فمن أسباب ضلال أبو طالب أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، مع أن عبد الله بن أبي أمية مات على الإسلام، وأبو جهل مات على الكفر.

قوله: «**فَقَالَا لَهُ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ؟** »: أي أتترك ملة عبد المطلب، لماذا قالا له ذلك؟

الجواب: لأنهم يعرفون أن من قال: لا إله إلا الله. فقد كفر بملة عبد المطلب، فهم يقولون: أن من اعترف واعتقد بأن لا إله إلا الله؛ فإنه دليل على أنه يبطل هذا الاعتقاد الذي هو في ملة عبد المطلب.

لذلك قالا: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ أي إذا قلت: لا إله إلا الله فأنت كافر بملة عبد المطلب.

قوله: «**فَأَعَادَ عَلَيْهِ اَلنَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا**»: أي عليه هذه الجملة، لذلك في "**كشف الشبهات**" وسبق لكم لما تكلم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – عن معنى "**لا إله إلا الله**" فقال: "**تبًا لرجال أبو جهل أعلم منهم بلا إله إلا الله**"، كيف أعلم منهم؟

الجواب: يعني بعض الناس حينما تسأله عن معنى لا إله إلا الله ماذا يقول؟

الجواب: يقول: لا خالق إلا الله، أو لا رازق إلا الله، أبو جهل حينما عرضت علي أبي طالب لا إله إلا الله، ماذا قال؟

الجواب: قال: أترغب عن ملة عبد المطلب؛ فهو يعرف أن من قال: لا إله إلا الله. فهو كافر بملة عبد المطلب.

لذلك لا بد للمؤمن المسلم طالب العلم أن يتقن هذه الكلمة، ويعرف معناها، وحقوقها، وشروط هذه الكلمة العظيمة.

قوله: «**فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ – أو آخرُ ما قال: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ**»، كيف هو على ملة عبد المطلب؟

الجواب: هذا الراوي، استقبح أن ينسب إلى نفسه هذه الملة الشركية، لذلك ورد في المسند أنه قال: "**فكان آخر ما قال: أنا على ملة عبد المطلب**".

قوله: «**وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، فَقَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»: أي لأطلب لك الشفاعة، فأشفع لك فأقول: أستغفر الله. بشرط: «**ما لم أنه عنك. فَأَنْزَلَ اَللَّهُ ﷻ {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا**

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى}»: هذا فيه بيان أنه لا يجوز لأحد أن يستغفر للمشركين.

قوله: «**وَأَنْزَلَ اَللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ**»: أي في شأن أبي طالب **قوله**: **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}** [القصص: ٥٦]: هنا إشكال وهو أنه ظاهر هذا السياق أن هذه الآية **{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ}** [التوبة: ١١٣]: نزلت في مسألة أبي طالب، أي أنها نزلت في مكة، مع أن النبي ﷺ حينما مر على قبر أمه استأذن من الله عز وجل أن يزور القبر فأذن له، واستأذن أن يستغفر لأمه فلم يؤذن له، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، فما هو الجمع؟

الجواب: يحتمل أن يقال: أن هذه الآية نزلت مرتين: نزلت أولًا في مكة، ثم بعد ذلك نزلت في المدينة.

أو يقال: بأن هذه الآية لها سببان: سبب متقدم وهو قضية أبي طالب، وسبب متأخر وهو زيارة قبر أمه.

وبقي مسألة نختم بها هذا الباب: حكم الدعاء للكافرين.

هل يجوز للإنسان أن يدعو للكافرين أو لا يجوز؟

نقول: **الدعاء للكافرين على أنواع**:

النوع الأول: أن يدعو لهم بالهداية، اللهم اهد فلان. فهذا مشروع، والنبي ﷺ دعا لبعض القبائل أن يهتدوا «**اللهم اهد دوسًا**»، ودعا لأم أبي هريرة.

النوع الثاني: الدعاء بأن يرزقوا في الدنيا من مال، أو رزق أو غير ذلك، فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ استسقى للمشركين، فهذا فيه جواز أن تدعو للكافر بطلب الدنيا، بغرض من أغراض الدنيا كالزوجة، أو المال، أو الوظيفة أو غير ذلك، وقد يكون سبب من أسباب هدايته.

النوع الثالث: الدعاء له بالمغفرة، فهذه أيضًا على نوعين:

١. إن كانوا أحياء فيما بينك وبينهم فإن هذا جائز، كما ورد عن نبي من الأنبياء آذاه قومه فقال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»: أي إسقاط حق نفسه، اغفر لهم ما تسببوا فيه من أذيته.

٢. أما إذا مات الإنسان على كفره فإنه لا يجوز له أن تدعو له بالهداية ولا بالرحمة ولا بالرضا.

وعلى ذلك نقول: أن الدعاء للكافر على أنواع منه:

- ما هو مشروع: كالدعاء له بالهداية.
- ما هو جائز: كالدعاء له بالدنيا، رزق من رزق الدنيا.
- ما هو محرم: كالدعاء له أو الاستغفار له بعد الموت.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.